Downloaded from: Bakatheer.net

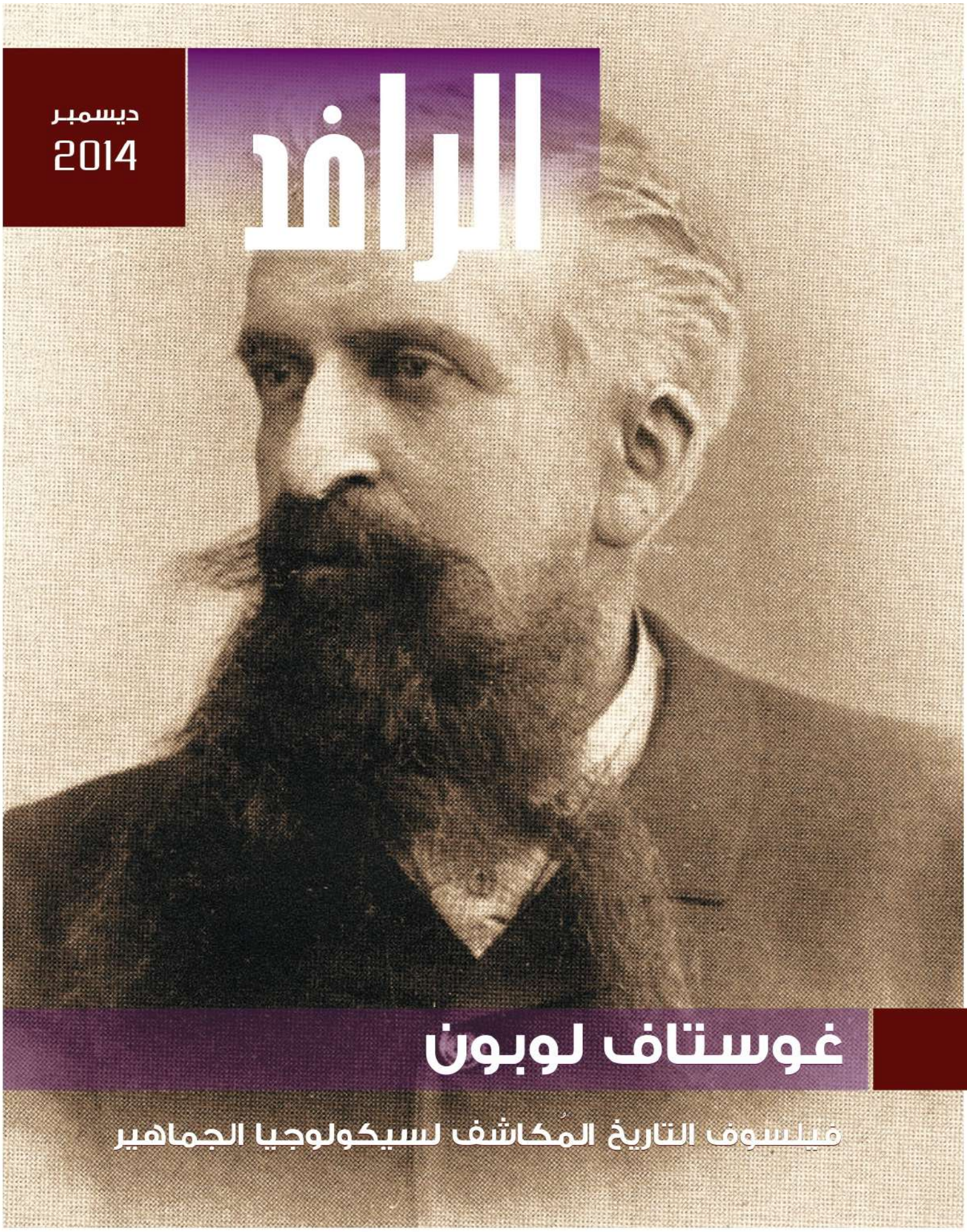

الرافد

ديسمبر
2014

غوستاف لوبون

فيلسوف التاريخ المُكاشف لسيكولوجيا الجماهير

مجلة الرافد . شهرية ثقافية . تصدر عن دائرة الثقافة والإعلام . حكومة الشارقة – صفر ١٤٣٦هـ . ديسمبر 2014

208

Downloaded from: Bakatheer.net

«أغنية البحيرة» تجد مؤلفها

قصيدة تائهة بين شقيقين!

د. عبد الحكيم الزبيدي

الشعراء وتشابه الأسماء

من سوء طالع الشعراء أن يتشابه اسم أو لقب بعضهم مع اسم أو لقب شاعر معروف، فيطغى المشهور منهما بشهرته على الآخر الأقل منه شهرة وتنسب إليه أشعاره. وهذه الظاهرة كثيرة في الأدب العربي، فقد حمل لقب النابغة أكثر من عشرة شعراء أشهرهم النابغة الذبياني، وحمل اسم امرئ القيس مجموعة من الشعراء أشهرهم امرؤ القيس بن حجر، وقد جمع المحقق الكبير الأستاذ حسن السندوبي أشعارهم وأخبارهم في كتاب، جعل عنوانه (أخبار المراقسة والنوابغ وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام)(١). ويقصد بالمراقسة من سُمي باسم امرئ القيس، وبالنوابغ من لُقِّب بالنابغة.

وحمل أسماء متشابهة شعراء آخرون وتداخلت نسبة أشعارهم، مثل سُحيم، فقد حمل هذا الاسم عدة شعراء منهم سُحيم الرياحي وسُحيم عبد بني الحسحاس، وكذلك حمل لقب المجنون عدة شعراء ونسبت أشعارهم إلى أشهرهم وهو مجنون بني عامر.

وفي العصر الحديث تطابق اسم شاعرين متعاصرين أحدهما مشهور وهو من رواد المدرسة الإحيائية، ويعد في مرتبة البارودي وشوقي، وهو الشاعر إسماعيل صبري باشا (١٨٥٤-١٩٢٣)، وحمل الاسم نفسه شاعر آخر لا يقل عنه شاعرية ولكنه أقل شهرة، وهو إسماعيل صبري (١٨٨٦-١٩٥٣)، وللتفريق بينهما اضطر محققو ديوانه إلى إضافة كنيته على غلاف الديوان، ليصبح: (ديوان إسماعيل صبري أبو أميمة).

الاستاذ باكثير - الجالس على الكرسي وبجواره يقف أخواه حسن ثم أبو بكر

قصيدة (أغنية البحيرة)

حين أنشأتُ في العام ٢٠٠١م موقعاً على الشبكة العالمية (الإنترنت) للتعريف بالشاعر الروائي المسرحي الكبير علي أحمد باكثير، لم أكن أتوقع أن يلقى الموقع كل ما لقيه من

يسار: باكثير

تذكرت كل هذا بعد أن اكتشفت مؤخراً أن قصيدة (أغنية البحيرة) التي شاعت نسبتها إلى الشاعر علي أحمد باكثير، إنما هي لشقيقه حسن أحمد باكثير. ولهذا الالتباس قصة يحسن أن نوردها.

حفاوة الأدباء والباحثين والمهتمين بالأدب. وهالني مقدار الحب الذي يحظى به باكثير وأدبه. وقد تجلى ذلك الحب من خلال الرسائل التي انهالت علي من مختلف البلدان تبارك ظهور الموقع وترسل إلي بما لديها من

Downloaded from: Bakatheer.net

معلومات مجهولة تتعلق بحياة أو أدب باكثير. فقد أرسل لي محب لباكثير من السعودية ملصقاً دعائياً لفيلم (مسمار جحا) الذي أنتج عام ١٩٥٢م، كما أرسل لي طالب عربي من ألمانيا يحضر رسالة ماجستير عن باكثير بنص كامل لرسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية عن أدب باكثير، نوقشت عام ١٩٧٢ في جامعة أدنبره بأسكوتلندا، وغيرها كثير.

ومن ضمن الرسائل التي تلقيتها رسالة من الدكتور نزار غانم وهو طبيب وموسيقي يمني درس في السودان وأقام فيها مدة طويلة. وكان حين راسلني (فبراير ٢٠٠٥) يشغل منصب المستشار الثقافي في السفارة اليمنية في الخرطوم. وقد شكرني على اهتمامي بالتعريف بباكثير، وذكر لي أنه زار باكثير في منزله بالقاهرة برفقة والده الشاعر اليمني الكبير محمد عبده غانم. وكان مما قاله في رسالته تلك إن في السودان أغنية شهيرة من كلمات باكثير عنوانها (البحيرة) لحنها الموسيقار السوداني عربي الصلحي (توفي سنة ٢٠٠٤)، وغناها الفنان السوداني الكبير عبد الدافع عثمان (توفي سنة ٢٠١٠).
فأخذت أبحث عن تلك الأغنية في الإنترنت حتى عثرت على كلماتها بعد لأي في أحد المواقع السودانية فأضفتها إلى قصائد باكثير التي في الموقع، وأنا لا أشك في صحة نسبتها إليه. ثم وجدت تسجيلاً لها مغناة في موقع (اليوتيوب) فأضفت رابطاً له في موقع باكثير.

ومما أكد صحة نسبتها للأديب علي أحمد باكثير لدي أنني كنت أثناء متابعاتي لما يكتب عن باكثير في الإنترنت قد عثرت على مقالة بعنوان (علي أحمد باكثير- شاعر البحيرة) نشرت في موقع (صحيفة الرائد) بقلم الأستاذ صلاح الدين عبد الحفيظ بتاريخ (٢٠١٠/٠٥/٣٠). وقد ذكر كاتب المقالة قصة وصول الأغنية إلى الملحن السوداني الأستاذ عربي الصلحي، وذكر أنه -أي الصلحي- اطلع عليها منشورة في مجلة (الرسالة)، فأعجبته فلحنها وأعطاها للمطرب عبد الدافع عثمان، وقال له بالحرف الواحد -كما يذكر كاتب المقالة رواية عن المطرب عبد الدافع عثمان -: «هذه الأغنية ستجعلك على القمة»، ثم يضيف كاتب المقالة: «فكانت بالفعل معبراً للفنان عبد الدافع عثمان نحو القمة، وظلت حتى الآن تذكاراً لغناء العباقرة في زمن الغناء المعتق». وقد ذكر كاتب المقالة أن الأغنية أذيعت لأول مرة عام ١٩٥٤م.

رحلة الشك

على أني بعد ذلك شككتُ في صحة نسبتها لعلي أحمد باكثير حين سألتُ الدكتور محمد أبوبكر حميد وهو الباحث الأمين على تراث باكثير، الذي آلت إليه جميع الآثار الأدبية التي تركها باكثير بعد وفاته لدى أسرته في القاهرة، حين سألته عن هذه القصيدة ذكر لي أنه لم يجدها بين القصائد التي وصلت إليه سواء المنشورة منها في الصحف والمجلات في حياة باكثير أو المخطوطة.

ولما كنت قد وجدتها في الإنترنت في كثير من المواقع السودانية منسوبة إلى (باكثير) فقط دون ذكر الاسم كاملاً، فقد قدرت أن تكون لشاعر آخر من أسرة باكثير غير علي أحمد باكثير، وأول من خطر في بالي هو شقيقه الأستاذ حسن أحمد باكثير الذي درس في دار العلوم بالقاهرة وكان ينشر شعره في مجلة الرسالة في الأربعينيات من القرن الميلادي الماضي. وكنت قد اطلعت على نسخة من أعداد مجلة (الرسالة) في المكتبة العامة بدبي في مطلع التسعينيات، وصورت كل ما وجدته من شعر لعلي أحمد باكثير منشوراً فيها. ومررت خلال ذلك على قصائد منشورة باسم حسن أحمد باكثير ولكني لم أهتم بتصويرها، لأن اهتمامي كان منصباً على شقيقه علي.

ولما كان البحث في النسخة الورقية من مجلة (الرسالة) يتطلب جهداً ووقتاً غير متيسر لي الآن، فقد أخذت أبحث عن نسخة إلكترونية من (الرسالة) في الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) ليسهل علي البحث فيها، وطال بي التنقيب حتى عثرت مؤخراً على ما أطلبه في موقع (المكتبة الشاملة)، وهو موقع غني بأمهات الكتب. وحين بحثت عن قصيدة (البحيرة) وجدتها منشورة باسم حسن أحمد باكثير في (العدد ٤٣١) الصادر بتاريخ: ٠٦ - ١٠- ١٩٤١م. وزيادة في التأكد، رجعت إلى العدد المذكور في نسخة ورقية من مجلة (الرسالة) موجودة في مكتبة ندوة الثقافة والعلوم بدبي، وصورتها. وهكذا صدق حدسي وعثَرْتُ القصيدة بمؤلفها، بعد رحلة طويلة. وهأنذا أسارع بنشر خبر هذا الاكتشاف حتى يُعرف المؤلف الحقيقي لتلك القصيدة الجميلة.
والطريف أن الشاعر حسن باكثير كان قد أهدى قصيدته تلك إلى (ناظم أغنية الجندول وملحنها البارع)، فكان أن قيض الله له ملحناً بارعاً ومطرباً عظيماً فذاعت قصيدته وشاعت حتى أصبحت شهرتها لا تقل عن شهرة (أغنية الجندول).
وهذا نص القصيدة، كما نشرت في مجلة الرسالة:

أغنية البحيرة

(مهداة إلى ناظم (أغنية الجندول) وملحنها البارع)
للأديب حسن أحمد باكثير

Downloaded from: Bakatheer.net

إن رأيتِ الصبح يُبدى لكِ سحرَه
فاذكريني واذكري يوم البحيرهْ

يوم أقبلتِ وفي يمناكِ زهره
قد حكت من وجهكِ الوضَّاحِ ثغرَه

ونسيمُ الصبحُ يهدي لكِ عطرَه
والنَّدى يكسو وجوه الزهرِ نُضرَه

فعرتني - حينما سلَّمتِ - حيرَه
أأداري القلبَ أم أعلنُ سِرَّه؟

وأواري الحُبَّ أم أظهر أمرَه
أنتِ يا من وشَّحتْ بالزهرِ عمري

وأضاءت بشُعاعِ الطُّهرِ صدري
اذكريني واذكري يوم البحيرة

***

لم أعد أذكر إلا أن نظرَه
أشعلت في قلبيَ الولهانِ جمرَه

وأطارت من حنايا الصَّدرِ زَفرَه
وأسالت من سوادِ العينِ عبرَه

وجَنَت للروحِ تَهياماً وحَسرَه
يا لَسحرِ الحُبِّ! ما أفتكَ سحرَه!

يأسِرُ القلبَ وما أعذبَ أسرَه!
إن أكن أُنسيتُ ما أُنسيتُ ذكرَه

ليتني - إذ ذُقتُه - ما ذُقت مُرَّه
أنتِ يا من وشَّحتْ بالوردِ عُمري

وأضاءت بشعاعِ الخُلدِ صدري
اذكريني واذكري يوم البحيرة

***

واذكري إذ قلتُ: هذا اليومُ غُرَّه
في جبينِ العمرِ فلنَشْتَفَّ بِشرَه

وانثري من ثغرِكِ الفتَّانِ دُرَّه
وانشري من شَعرِكِ الوسنانِ عِطرَه

أو دعيني أرتشفْ من فيكِ خمرَه
أو أقبِّلْ خدَّكِ الورديَّ مَرَّه

فتصاممتِ كما لو كنتِ صخرَه
وسَرَتْ في وجهكِ الأخَّاذِ حُمرَه

طرباً أخفقتِ إذا حاولتِ سترَه
أنتِ يا من عطَّرَتْ بالحُبِّ عُمري

وأضاءت بشُعاعِ القلبِ صدري
اذكريني واذكري يوم البحيرة

***

واذكري الزورقَ إذ أوقفتُ سيرَه
بعدما اجتاز بنا عرضَ البُحيرَه

فانتحينا مجلساً تحت شُجيرَه
مجلساً حُفَّ بماءٍ وبخُضرَه

وبأزهارٍ حباها الفجرُ طُهرَه
ومروجٍ تُلهمُ الشاعرَ شِعرَه

فسكرنا عنده بالحُبِّ سكرَه
لم تدم إلا كما تخطرُ خطرَه

آه لو عادت وعادت ألفَ مرَّه
أنتِ يا من عطَّرَت بالحُبِّ عُمري

وأضاءت بشُعاع القلبِ صدري
اذكريني واذكري يوم البحيرة

الهوامش

(١) طبع ملحقاً بشرح ديوان امرئ القيس، صدر عن المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، العام ١٩٥٣م.